مع غزّة

اختبار لما تبقى لنا من إنسانيّتنا

نادر كاظم

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «يا جرحنا المفتوح على كل الاحتمالات منذ 76 عاماً، كم اخجل ان اتحدّث عنكم بلغة الماساة»، يقول الكاتب والاكاديمي البحريني لـ«العربي الجديد»

نادر كاظم

المقابلة: العربي الجديد

أفكّر في فرانز فانون

على خلاف كليرين قد يفكّرون في جيفارا او مانديلا او غاندي، أفكّر في فرانز فانون، فهذه شخصية انسانية عظيمة ونبيلة واستثنائية على كل المستويات، وعلى الرغم من عمره القصير، فان كُتبه العظيمة على قلّتها، وافكاره التي ازداد تاثيرها بعد وفاته، ومواقفه وصموده الذي لم يكن يتزعزع، واصراره على مواصلة النضال في الميدان وهو في اوج مرض سرطان الدم،كل هذا يجعل هذه الشخصية استثنائية بكل المقاييس.

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

حين بدأ العدوان على غزّة، كنتُ أشتغلُ على كتابي الجديد، وتشاء المصادفات أن يدور الفصل الذي كنتُ اشتغل عليه وقتها، حول شخصيّة نضاليّة استثنائيّة في تاريخ حركات التحرّر الوطني والنضال ضد الاستعمار والعنصريّة الغربيّة، وهو فرانز فانون، الطبيب النفسيّ والمناضل الماركسيّ الذي انخرط في الثورة الجزائريّة منذ عام 1956، حتى وفاته في عام 1961. وتداخلت في ذهني نضالات الشعب الجزائري الأسطوريّة ونضالات الشعب الفلسطينيّ العظيمة. كما لا أنسى مشاعر الغضب والسخط والشعور بالعجز والخذلان، وأنّ العالم لم يكتفِ بأن يتفرّج على ماساة شعب يُذبح ويُجوّع، بل كان متواطئاً على نحو مُخزٍ وآثم.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

كانت أيام العدوان الأولى صعبة عليّ نفسيّاً، كان ذهني مشغولاً بالكامل بما يجري في غزّة ليلاً نهاراً، إلى درجة أنّني لم اكن قادراً على لقاء اصدقائي، كما أنّني شعرتُ وقتها بشيء من تانيب الضمير في الاستمرار في الكتابة في ظلّ هذه الظروف الماساويّة التي تعيشها غزّة. وتذكّرتُ موقف إدوارد سعيد في آب/أغسطس 1979، عندما كان في بيروت، وعندما كانت «إسرائيل» تقصف مخيّمات اللاجئين في الجنوب. كتب سعيد بأنّه يشعرُ بالذنب لأنّه يكتب مقالات عن كونرد وسويفت وغيرهما، في الوقت الذي تُقصف فيه مُخيّمات اللاجئين. لم أكن وقتها اكتب عن كونرد ولا سويفت، بل عن فرانز فانون وعن إدوارد سعيد نفسه، وعن موقف جان بول سارتر الجبان من القضيّة الفلسطينيّة، ومع هذا كنت أشعر بالذنب.

■ إلى أي درجة تشعر أنّ العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

المفارقة هنا أن تيودور أدورنو، المُفكّر الألماني اليهودي، هو الذي قال إنّ «كتابة الشعر عملٌ بربريّ بعد أوشفيتز». وفي الحقيقة، يشعرُ الكاتب، في أيّ مجال كان، أنّ الكتابة قد تكون عملاً لا جدوى من ورائه في ظلّ المأساة التي تجري في غزّة، أو قد تكون عملاً غير مسؤول، ولا ينمّ إلا عن انعدام أي إحساس إنساني. إلّا أنّ الوجه الآخر للموضوع، أنّ الكتابة ضد المأساة قد تكون عملاً واجباً، ومطلوباً بإلحاح، بل هو عمل مشرّف وإنساني. وأنا في الحقيقة أصاب بالشلل وعدم القدرة على الكتابة إبّان المأساة، وأشعر أنّني إذا كتبت شيئاً وأنا غارق في هذا النوع من المشاعر المتأجّجة، فلن أكتب سوى كتابةً عاطفيّة ومتسرّعة، وهي أقرب إلى الصراخ من شدّة الألم.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

«لو كنتُ غيري لصرتُ أنا، مرّةً ثانية»، هكذا قال محمود درويش، وهكذا أقول.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

شيءٌ من العالم، ليس لأنّ العالم لا يتغيّر بالأماني، بل لأنّ كلمة «العالَم» تبسّط الكثير من التعقيد والتشعّب، ولهذا لا أشغل بالي بتغيير العالم، بل كل ما أريده هو أن لا يُغيّرني هذا العالم، وأن أبقى لأشهد تغيير الموقف من القضيّة الفلسطينيّة حول العالم، وهو التغيّر الذي أمل أن يتصاعد إلى الحدّ الذي يتمكّن فيه من وضع حدّ لهذا العدوان الوحشيّ والمجنون على غزّة.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

على خلاف كثيرين قد يفكّرون في جيفارا أو مانديلا أو غاندي، فأنا أفكّر في فرانز فانون، فهذه شخصية إنسانية عظيمة ونبيلة واستثنائية على كلّ المستويات، وعلى الرغم من عمره القصير، فإنّ كُتبه العظيمة على قلّتها، وأفكاره التي ازداد تاثيرها بعد وفاته، ومواقفه وصموده الذي لم يكن يتزعزع، وتخلّيه عن كل شيء من أجل الانخراط في ثورة شعب ليس هو شعبه، وإصراره على مواصلة النّضال في الميدان وهو في أوج مرضه (سرطان الدم) الذي قضى عليه سريعاً، كل هذا يجعل من هذه الشخصية استثنائية بكل المقاييس.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

يا «ربيع العالم فينا»، ويا جرحنا المفتوح على كلّ الاحتمالات منذ 76 عاماً، كم أخجل ان أتحدّث عنكم بلغة المأساة على الرغم من أنّ مأساتكم تُخجّل عن الوصف، ما أعظم صبركم وصمودكم وجرحكم، وما أصغر كلماتنا!

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

غزّة اختبار ليس لعروبتنا، بل لإنسانيّتنا، أو لما تبقّى من إنسانيّتنا.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي». ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

حبيبتي دارين، لا أجد أبلغ من قول الشاعر ليكون تحيّة خجلى لروحك: «ساسمّيك كلّ شيء، أنتِ عندي مفاجأة ومرايا لكلّ ضوء»، و«خبئي الدمعة للعيد، فلن نبكي سوى من فرح».

> افكّر في فرانز فانون شخصية استثنائية بكل المقاييس
>
> ما اعظم صبركم وصمودكم وجرحكم، وما اصغر كلماتنا!
>
> غزّة ليست اختبارا لعروبتنا فحسب، بل لإنسانيّتنا ايضا

إصلاة

التذرُّع بالهولوكوست لارتكاب هولوكوست آخر

لكن العالم يتغيّر

مرتكبو الهولوكوست في غزّة اليوم، هُم احفاد ضحاياها في الامس القريب، يكرّرون جرائم النازيّة، ويتماهون معها باستعمال الوسائل ذاتها

فوّاز حداد

زمن الهولوكوست لم ينته، فهو حاضر، ما زال ساريا ويتجدّد، لكن على نحو مُغاير، ليس كما أريد له أن يكون مانعاً لها. بل سامحاً بها، إلى حدّ أصبح في كلّ مذبحة ترتكبها «إسرائيل» مُسوّغاً لتبرئتها، ومباركة العالم لها بضمير مُرتاح. ما منح «إسرائيل» امتيازاً لا نظير له، عدم المسؤولية عن عشرات المجازر، ولا الانصياع لقرارات «الأمم المتحدة»، ما جعلها فوق القانون الدّولي.

أمّا الذي أعطاها هذا الحقّ، فهؤلاء الذين شاركوا في ارتكاب الهولوكوست النّازي من الدّول التي امتنعت عن استقبال اللاّجئين اليهود الفارّين من ألمانيا، الهاربين من الموت. لم تكن أبواب الدول الأوروبية وأميركا مفتوحة لهم، كانت تتعامل معهم بانتقائية، وترفض السفارات إعطاءهم التأشيرة، وتُرك الملايين للمحرقة. اليوم بانحيازهم إلى «إسرائيل» والصمت على محرقة غزّة، يعتقدون أنهم ينفون المسؤولية عن حكوماتهم، بعدم توجيه الأنظار عمّا شاركوا بصناعته، لكن التاريخ لا ينسى، ما يحاولون إخفاءه، والتستّر عليه. ما أعطى الحريّة المُطلقة لـ«إسرائيل» في استثماره بمضاعفة الإبادة عدّة مرّات وبشتّى الأسلحة، هذه الدول لا تؤيّدها فقط، بل وتساعدها على تنفيذ جرائمها.

العالم لم ينس الهولوكوست، أصبح من عتاد السينما طوال ما يزيد عن ثلاثة أرباع القرن، أخذته «هوليوود» على عاتقها، لا تكفّ عن تذكيرنا به من خلال أعداد هائلة من الأعمال الفردية، والتحذير من ارتكاب ما يُعيدها إلى الذاكرة، أو تكرار ما هو شبيهٌ بها، فالإبادة ليست حكراً على الهولوكوست اليهودي، بل تهدّد سكّان المعمورة قاطبة، إنها محنة البشر جميعاً، ولا تفريق أو تمييز بينهم.

شهد العالم أكثر من إبادة في أفريقيا وآسيا، لم تأخذ نصيبها من التعريف بها، بعدما اختطفت «إسرائيل» الهولوكوست واعتبرته يخصّها وحدها، ولا إبادة تُقارن به، وجهدت في منع الاعتراف بغيره، لذلّا تغيب الأنظار عن الهولوكوست اليهودي، حتى باتت الإبادة بالنسبة لها مجالاً للتنافس، ومجالاً مفتوحاً للمتاجرة، استُخدم لابتزاز دول العالم، استثمرت الصهيونية بالمحرقة النازية، وجعلت دول أوروبا تعيش تحت وطأتها، ما يضطرّها للوقوف إلى جانبها، وإلاّ وجّهت أصابع الاتّهام إليها، ألمانيا بالتحديد تعيش على الدوام أسيرة عُقدة ذنب تاريخية. ولم تعفُ «إسرائيل» عن توريط الضمير العالمي والإيقاع به، بزعم أنّ الظّلم الذي حاقّ بالأجداد، يجعل لها الحقّ بإيقاع الظلم بالشعب الفلسطينيّ.

لم يفهم العالم بعدُ أن قصة الهولوكوست المعروفة انتهت بموجب ألاّ تتكرّر، لكنّها منذ ذلك الوقت لم تتوقّف فصولها على أرض فلسطين، ما أشاح البصر أيضاً عن أكثر من هولوكوست دارت وقائعه في أفريقيا وآسيا، وإدراك أن «إسرائيل» أكثر دولة في العالم ارتكبت أخطر المجازر في فترة قياسية وبشكل دوري، كان ذريعة مستمرّة لتهجير الفلسطينيّين ونهب أراضيهم.

استُخدم الهولوكوست على غير ما كان الاعتقاد عنه، أن يشكّل حافزاً إنسانيّاً على إنهاء القتل لدواع عُنصرية مهما جرى التستّر عليها، بعدما أصبحت الإبادة السافرة الجزء الأكثر انحطاطاً من تاريخ العالم، وتعبيراً عن الجنون البشري، بلغ فيه شطط القوّة ما تجاوز حدود الرُّعب المُطلق، أطلق الشرّ باقسى صُوره، في أفظع مثال على تهديد الوجود الإنساني، ودعا إلى العمل على كفّ جماح آيّة ذريعةً تنحو لإلغاء شعب أو عرق أو بشر.

في العُدوان الجاري حالياً، تدور التساؤلات عمّا يجري في غزّة، ما يحدث فيها هولوكوست أضيف إليه التجويع حتى الموت، ألّا فت أنّ الفاعلين هُم أحفاد ضحايا الهولوكوست، يكرّرون جرائم النازيّة، ويتماهون معها باستعمال الوسائل ذاتها، وكأن لهم الحقّ في القتل. على الرغم من الحُكم الذي أصدرته «محكمة العدل الدولية» بأنّ «سلوكيات إسرائيل تمثّل شكلاً من أشكال الإبادة الجماعية»، ما زالت المجازر يوميّة بمشاركة أميركا التي تمدّ «إسرائيل» بالذخائر الفتّاكة وتعرقل الجهود الدولية الرّامية لوقف إطلاق النار، مع ضلوع أوروبا بمساندة القرار الأميركي بحجب الأموال عن «الأونروا»، ما يشكّل تنكّراً للالتزام بتقديم المساعدة الإنسانية... ولا أمل إلاّ في تطويل أمد مقاومة غزّة على مقاومة الاحتلال.

الذي لم يُعمل له حساب أنّ العالم استيقظ، بات يعرف أنه لا يجوز التذرّع بالهولوكوست لارتكاب هولوكوست آخر، ولو كان في عودة النازية إلى الحياة في «إسرائيل» وأميركا وأوروبا، لكن في هذه البلدان نفسها استيقظ الضمير أيضاً... إن العالم يتغير.

(روائي من سوريّة)

محتجّون يرفعون علم فلسطين بمنع لوحة غيرنيكا لبيكاسو، سان سيباستيان شمال إسبانيا، 17 آذار/ مارس 2024 (Getty)

قصائد

جسدُكِ بلدي الذي يحترق

خمس وردات من الدَّم

أنيس باتور

ضوء مشترك

انتظرنا، فلم يأتوا. فتحنا
النوافذ، وأصغينا للأصوات
ليلاً ونهاراً، ومسَّطنا الوجوه المُتعبة
النازلة إلى المحطّة وجهاً وجهاً،
وضبطنا منظارنا على البُقع التي في
الأفق:
انتظرنا، منكسرين، حتى بعد معرفتنا
أنهم لن يأتوا.

لم تمرّ الأيام عظيمة هنا:
اللحظاتُ العادية والبسيطة والهادئة
طاردت لحظاتٍ عادية وبسيطة ومُرّة:
لم يكن ثمّة عواصف كبرى، ولم تُحل
أسحار كبرى هذا الصيف: الأحزان
الدائمة
من غير سبب، وفال الأطفال التائه،
وقليل من علم اجتماع البلدة في
العطلة،
وعادت التقويمات بالكلام الفارغ:
كانت عيننا على الطريق، ولم يأتوا.

انزوينا في الغرف، وقرأنا قراءة صامتة
قصائدَ سيفريس ومُونتال،
وإيباتا مليئةً بالبحر المتوسط، كلّها من
أنوفنا.
فجأة انطلقنا في مسير مساءً
وصمتْنا فجاة.
كانتا قبضتا على معنى نادر،
صعدنا إلى قُرى الجبال يوماً،
واستمعنا لقصة أولاد بائع الإسفنج،
وتحدّثنا مع امرأة منسيّة
في يوم آخر، ثمّ تتابعت المعجزات: نظرنا
إلى حدأةٍ بعين الصيد طويلاً،
أنزلنا مطراً غزيراً وسط الفصل الشاحب
بينما نُطفئ حريقاً، اشعلنا حريقاً آخر:
كان بمكنكم أن تأتوا فجاة، انتظرنا.

كانت المائدة جاهزة: عشبة الرجلة
والثوم،
والزعتر الذي جمعناه بأيدينا، والتين،
والنعناع: كنّا جاهزين للاستمرار
بالارتياك
والانفعال من حيث توقّفنا.
كنّا سنسال كيف مرّ الماضي،
وكيف سيأتي المستقبل.
إذا لم نتابع الألم فلن يهدأ،
ولن يُفتح هذا الضباب الكثيف
إذا لم يُمسك ضوء مشترك من جذوره،
سنكون وسط الخوف الذي بداخلنا:
انتظرنا، فلم تأتوا.

ثمّة نقصٌ هام عندما بدأت العودة،
لم نستطع أن نُغلق الحقيبة. عُدْنا،
واعدنا النظر إلى الغرف، وبحثنا
في المحاجر وفي الحياة: لم نفهم ما
أضعناه.
لعلّنا كنّا بصدد نَصْف إحساس،
ولعلّه حلم بقظة،
تغذّى في أنفسنا،
ولعلّه لهب انطفأ في الأخر،
وصلنا إلى عتبته، لكنّنا لم نره:
انتظرنا، لو أنكم أتيتم.

■■■

أحمر

البلد يحترق
قضيتُ حياتي بين تلك النيران التي لا
تنطفئ،
روحي يابسةٌ،
وعقلي يُدخّن دون انقطاع.
حاولتُ إدارة ظهري دون جدوى:
أينما أذهب لا أستطيع الهروب
من رائحة السخام التي تملأ أنفي.
وددتُ لو أعرف السبب، حاولتُ بلا فائدة.
كبرت الأشجار التي غرستُها، والدخانُ
يتصاعد
وتبخّرت مياه المطر التي جمعتُها...
التربةُ التي حرثتُها أصبحت جرداء
أكثر،
عاماً بعد عام، أجلٌ،
أنا رِجْلٌ ولَد طفلاً: إيكاروس،
لكنني نادمٌ على ذلك من زمان.
كنتُ شابّاً، اقنعتُ نفسي بأزمنة أفضل
وتوقّعتُ أن يكون الصوابُ مواتياً،
لكنّ الخطأ أصبح جمرةً بدلاً منه.
توقّعتُ أن تتحطّم الأسبابُ واحدةً تلو
الأخرى،
لكن النتائج سادتْ.
في البداية شققتُ طريقاً في الفراغ الذي
أمامي،
تقدّمتُ بصبرٍ وعناد، عاماً بعد عام، عبر
النيران
والآن أنا منهك، ومذعور أكثر من أي وقت
مضى،
أغرقُ ببطء في قاعِ نفسي.

هل سيتطفئ هذا اللهب الكبير يوماً ما؟
لست أدري.
لكنني أعلم أنني لن أرى انطفاءه.
من نافذة غرفة طابق السقيفة،
أطلّ على ما أراه كطائرٍ برّيٍّ بنظرةٍ
ثاقبة: لا أرى سوى الرّعب
كما في لوحة ترسُّم علينا الألمَ القاتلَ
الذي نمرُّ به
عبر أحد جُدران «برادو»،
أميّز ملامح وجهي البائس
في إحدى الصُّوَر الحائرة.
تُرى، لماذا استحققْنا هذه الجحيم؟
أيّ كبائر وأي جرائم غير قابلة للعقوبة
جعلتْنا
كي تكبلَنا في أحد كفّي الميزان الظالم؟
لو كان كابوساً لصحوتُ لأجفّف عرقي
المتصبّب.
لو كان نوعاً من الهلوسة - الهذيان
الارتعاشي - لاحتملتُ العطش.
لا هذا ولا ذاك، فالمرآة المُسطّحة الغليظة
تتقيّا الحقائقَ أمامي:
نغرق نحو قاع بحيرة بُنّيّة قرمزية
تزداد اتّساعاً.

■■■

خمس وردات

أحضرتُ لكِ خمس وردات يا حبيبتي
أحضرتُ، دون سبب، خمس وردات
حمراء: من الدّم.
خمس وردات بيضاء من الحليب،
خمس وردات صفراء ذهبية الأوراق
أحضرتُ لكِ يا حبيبتي خمسَ وردات
ورديّة من الفَجْر.

اقتطفتُها يدٌ غير يدي، فيدي في غاية
الجُبن:
لا أعرف إلّا الغرس واللّمس: جسدُكِ
بلدي الذي يحترق من الرأس إلى
أخمص القدمين
وأصابعي من أجلكِ خمسُ وردات
سوداء
من الفحم. الترابُ، اللّمسُ، والورقةُ
الفارغة:
فخورة من بين كلماتي بلا سبب.
أتقدّم وكلّ رسم تتركه قدمي على الثلج
رثاء
نزعتُ الأشواك: خمسُ وردات نقيّة من
أجلك.

(ترجمة عن التركية: محمد حقي صوتشين)

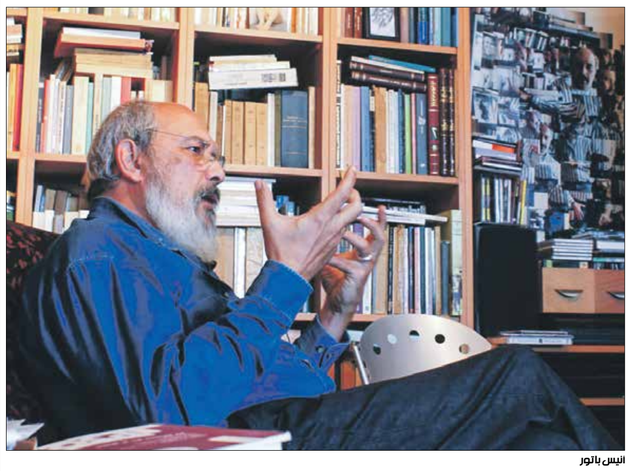
أنيس باتور

بطاقة

Enis Batur شاعر تركي من مواليد أسكيشهير عام 1952. بدأ دراسته الجامعية في «جامعة الشرق الأوسط التقنية» في أنقرة وأكملها في باريس. بعد العودة إلى تركيا أصبح رئيساً لدائرة المنشورات في وزارة التربية الوطنية، ثم ترأس تحرير عدد من المجلّات الأدبية. وأسّس عدّة دور نشر. توجّه إلى محاولات مبتكرة في الشعر شكلاً ومضموناً، لذلك أصبح من رموز الشعر التجريبي في تركيا. صدر له ما يقرب من عشرين ديواناً شعرياً، ومؤلّفات عديدة في الشعر والفكر والسرد وحياتنا الثقافية. تُرجمت أعماله إلى اللغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنكليزية والهولندية والفارسية.

فعاليات

عند الرابعة من مساء السبت المقبل وحتى الثامنة مساءً، تنظّم منصة «التضامن مع فلسطين»، في مدينة غوادالاخارا المكسيكية، فعالية **اصوات من اجل فلسطين**، تضامناً مع الشعب الفلسطيني وتنديداً بالعدوان الإسرائيلي على غزّة. تضم الفعالية قراءة أشعار، وعرضاً مسرحياً، إضافة إلى معرض تشكيلي عن فلسطين.

حتى الثالث والعشرين من الشهر الجاري، تستمر فعاليات **اسبوع ضد نظام الفصل العنصري الإسرائيلي** التي تنظّمها منصة «التضامن مع فلسطين» في أشبيلية. التظاهرة التي بدأت في الثالث عشر من آذار/ مارس، تضم محاضرات وندوات وورشات وعروض افلام توضّح جميعها حقيقة نظام الفصل العنصري الإسرائيلي، وما يجري حالياً من عدوان صهيوني على غزّة منذ خمسة أشهر.

حتى نهاية شهر آذار/ مارس الجاري، تعرض منصة «افلامنا» على موقعها الالكتروني الفيلم الوثائقي **فاطمة 75** للمخرجة التونسية **سلمى بكار**. يتناول الشريط (60 دقيقة) قصة طالبة جامعية تدعى فاطمة تقوم برحلة نسوية لرواية نضال النساء التونسيّات من اجل التحرّر من ثلاثينيات وحتى خمسينيات القرن الماضي.

بين الحادية عشرة صباحاً والواحدة من ظهر الثامن والعشرين من آذار/ مارس المقبل، ينظّم «متحف الفن الإسلامي» بالدوحة ورشة **عمل فني بالخط العربي**. يقدم الورشة **حسين احمد**، وتهدف إلى تعريف المشاركين على جمالية الخط العربي الموجود في قاعات عرض المتحف وابتكار اعمال خاصة بهم من وحي النصوص والقطع الفنية.